د.سفر الحوالي



تطور الفكر الغربي والحداثة

دار منابر الفكر
Dar Mnaber Alfekr

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ [1]

الحمد لله الرحمن، الذي علمنا القرآن، وفضلنا بالإيمان، ورضي لنا دينًا هو خير الأديان، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله سيد ولد آدم؛ نبي الرحمة ونبي الملحمة محمد بن عبد الله، وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعـد:

فإن الله تعالى قدر أن يكون لهذه القارة الصغيرة ذات البيئة القاسية (أوروبا) أثرٌ كبيرٌ في تاريخ الجماعة البشرية كلها، وأن تتولى قيادة ركب الغِوَاية في صراعه الأبدي مع ركب الإيمان، الذي قدر الله أن يكون معتصمه بلاد التين والزيتون، وطور سينين، والبلد الأمين [2].

والاستكبار على الله والشرود عن دينه الذي بلغت به

(١) نشرت هذه الرسالة في مجلة البيان في العددين (١٩٨ - ١٩٩).

(٢) أما في سابق الدهر فمعروف تاريخ هذا الصراع، لا سيما منذ بزوغ فجر الإسلام، وأما مستقبله فالأحاديث الصحيحة في الملاحم مع الروم تشهد له، وهي في الصحيحين وسائر كتب الأشراط والفتن والملاحم، وفي كلا الحالين: الروم هم المعتدون على أتباع الأنبياء.

المجتمعات الغربية المعاصرة غايته لم يأت عرضًا، وإنما هو وليد قرون من الصراع والتخبط، ثم الجموح والتمرّد، فقد كان منبت الحضارة الأوروبية من القاع الذي اجتمعت فيه رواسب الحضارات الجاهلية البائدة: (سومرية، آشورية، فرعونية، إغريقية، رومانية)، وبعد تصفية كل تلك الحضارات من آثار النبوة وبقايا الرسالات؛ حيث استبعدت أو طمست أية إشارة إلى توحيد الله عز وجل وإلى رسله الكرام وكتبه المنزلة [1]، ونفض الغبار عن الأوثان القديمة وشرك القرون الأولى، ونُقِّب عمّا طمره الدهر من أساطير وأصنام وضلالات وجهالات.

ذلك أنه في ظل الحضارة الجاهلية الأخيرة (الرومانية) اعتنقت أوروبا نصرانية (بولس) المنسوبة زورًا إلى المسيح عليه السلام حينما أعلن ذلك الإمبراطور (قسطنطين) سنة (٣٢٥م)، وانتقلت عاصمة الإمبراطورية من روما إلى بيزنطة (القسطنطينية).

---

(١) اقرأ التاريخ العام للحضارات ـ كما يصوره الفكر الغربي ـ فهل تجد في تاريخ مصر الفرعونية ذكرًا لموسى عليه السلام وقومه رغم الحديث الطويل في التوراة عنهم؟، واقرأ تاريخ الآشوريين فهل تجد ذكرًا ليونس عليه السلام؟ واقرأ تاريخ الفينيقيين والحيثيين فهل ترى ذكرًا لإلياس عليه السلام؟ بل إن إبراهيم عليه السلام لا يكاد يذكر، وأما نوح عليه السلام فنجد الحديث عن الطوفان ولا نجد لنوح ورسالته ودعوته من ذكر!!.

ويشاء الله تعالى أن يلي ذلك مرحلة مفجعة من تاريخ أوروبا الغربية، وهي المرحلة الممتدة من سنة (٤١٠م) ـ أي: تاريخ سقوط روما بأيدي البرابرة ـ إلى سنة (١٢١٠م) ـ أي: تاريخ ظهور أول ترجمة لكتب (أرسطو) في أوروبا ـ، ثمانية قرون كاملة من التيه والضلال اصطلح المؤرخون الغربيون على تسميتها أو جزء منها (عصور الظلمات)، وأفاضوا في الحديث عن الانحطاط الكامل حينئذ في الثقافة والعلم والفن؛ وكل جانب من جوانب الحياة إلا جانبًا واحدًا شذَّ عن ذلك وهو الدين، حيث توغلت النصرانية في الممالك البربرية الوثنية.

وكان ذلك العصر هو العصر الذهبي لانتشار النصرانية في أوروبا كلها، وأسست كنائس وأنظمة رهبانية جديدة[1].

تطيرت أوروبا بانتقال العاصمة من روما إلى القسطنطينية الذي أعقبه الاجتياح البربري الكبير لروما والإمبراطورية الغربية، وحدث هذا التناقض الحاد في انهيارٍ كاملٍ، حضاريًّا وعلميًّا، وانتشارٍ هائلٍ دينيًّا!!.

---

(١) مثل الكنائس والطرق الرهبانية التي أسسها (بندكت، كولومبس، بونيفاس، برنارد، دوميونيك، فرانسيس) وكلها طرق مبتدعة ما أنزل الله بها من سلطان، ولا عرف مثلها المسيح والحواريون.

وهذا ما أدى لأن يجاهر بعض المؤرخين، ومنهم أكبر المؤرخين لتلك الفترة قاطبة: (إدوارد جيبون) بالقول: «إن سبب انهيار الإمبراطورية الغربية هو تحولها من الوثنية إلى النصرانية».

وبالطبع لم تقل الشعوب الأوروبية حينئذ مثل هذا، ولكن في (اللاشعور) ارتبطت الوثنية بالحضارة والقوة، وارتبط الدين بالهزيمة والانحطاط، وهو ما كان له آثار بعيدة المدى في علاقة أوروبا بالدين[1]. أعني: دينها.

أما الإسلام؛ فإنه لما كان الرومان عامة يعدون كل ما عداهم من الشعوب برابرة، ولما كان البابوات ورجال الكنيسة يعدون الإسلام وثنية فقد اتفق الموردان في النظرة القاتمة إلى العالم الإسلامي، وامتزجت العنصرية القديمة بالحقد الديني الجديد.

مع أننا لو انتقلنا إلى واقع الحياة الإسلامية حينئذ وعقدنا مقارنة بين الدينين والحضارتين لوجدنا البون شاسعًا والفرق بعيدًا:

١- لم يكن لدى أوروبا مركز حضاري يمكن أن يسمى

---

(١) وعلى العكس تمامًا كان الإسلام أعظم نقلة في تاريخ العرب وغيرهم حيث نقلتهم من الظلمات والانحطاط إلى النور والتقدم في كل شيء، ولكن العلمانيين العرب يتعامون عن هذا، دع الغربيين فما على عدو ملام!!.

(مدينة) بالمفهوم السائد عن المدن فيما بعد، وأكبر ما كانت تعرفه هو (بيزنطة) و(روما) اللتان لم تكونا سوى قريتين متأخرتين؛ إذا قورنتا بالمدن العالمية آنذاك: (بغداد)، (دمشق)، (القاهرة)، (قرطبة)... إلخ [1].

٢- لم يؤلف في أوروبا خلال تلك الحقبة الطويلة كتاب علمي على الإطلاق، في حين نجد الواحد من علماء المسلمين يكتب العشرات، وربما المئات من المصنفات في فنون المعرفة جميعها.

وإذا كانت أوروبا تعد ظهور ترجمة كتب (أرسطو) بداية الخروج من عصر الظلمات، فإن الفضل عليها في ذلك يرجع إلى رجلٍ ليس أوروبيًّا ولا نصرانيًّا، بل هو (ابن رشد) المتوفى سنة (١١٩٨م).

ومن هذا المنطلق العنصري وبتلك الرواسب الجاهلية انتقلت أوروبا ببطء ـ في مرحلة مفعمة بالمفاجآت والانكسارات

---

(١) لا يزال التعصب والعنصرية يجريان في عروق المفكرين الغربيين، حتى أن (بول كيندي) عندما عدد المدن العالمية في العصور السابقة، ذكر بعض مدن الحضارتين الإغريقية والرومانية ولم يذكر مدينة إسلامية واحدة. (مسقبل القرن الحادي والعشرين) من الأصل الإنجليزي!.

الحادة ـ من عصر الظلمات البربري إلى عصر الظلمات الصناعي، وصولًا إلى المرحلة المعاصرة من الظلمات المتراكمة المسماة: (عصر ما بعد الحداثة).

واستمر القدر الإلهي ألا تعتنق أوروبا الإسلام، ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ [يونس:١٠٠]. هذا مع أن أساس نهضتها كان إسلاميًّا، وأن العربية كانت لغة العلم فيها إلى القرن الثامن عشر، وأن جامعاتها إنما قامت محاكاة للجامعات الإسلامية.

وليت الأمر وقف عند هذا الحد، غير أن ما فعلته أوروبا كان أفظع من مجرد التعصب لوثنيتها، وترك الاهتداء بهدى الله؛ فقد تعدى ذلك إلى العدوان العسكري المتواصل أبدًا على الإسلام وأهله، والوقوف الدائم مع كل عدو لهم وإن كان عابد حجر أو بقر!!.

لقد كان إجحافًا أن تنظر أوروبا للمسلمين نظرتها إلى البرابرة، والقوط، والنورمانديين، والفايكنج، بلا أدنى اختلاف، لكن أنكى منه أن تتداعى القارة طولًا وعرضًا شرقًا وغربًا، وتهبّ هبّة رجل واحد لتحرير الأراضي المقدسة من البرابرة الجدد ـ زعمت ـ !!.

وهكذا كانت الحملات الصليبية وكانت الصدمة الحضارية التي لم تنسها أوروبا لحظة واحدة من عمرها:

أوروبا التي لا تعرف التمدن تحاصر مدنًا هي صغرى في محيط الحضارة الإسلامية، لكن بعضها يبلغ عشرة أضعاف روما عاصمة المتحضرين المقدسة!!.

أوروبا التي لم تعرف العلم قرونًا، بل لم تعرف كتابًا إلا الإنجيل، ولا قارئًا إلا القسيس، تذهل للمكتبات الهائلة التي تختزنها هذه المدن الصغرى من عامة وخاصة، وفي كل فنون المعرفة من الفَلَك إلى النقد الأدبي!!.

أوروبا التي لا تستطيع أن تستغفر ربها، أو تصلي له، أو تقدم له قربانًا إلا بتوسط البابا وكهنته، ولا تستطيع أن تقرأ كتابها المقدس، ولا تفسره، أو تترجمه إلى لغة حية، تجد كتاب الله الأخير (القرآن) في الشرق الإسلامي المتحضر يتلوه الملايين في المساجد والبيوت، والكل يعبد ربّ العالمين بلا واسطة مخلوق!!.

أوروبا التي يعيش (٩٩٪) من أهلها عبيدًا ورقيق أرضٍ وفلّاحين ولا يستطيع أحدهم أن يتنفس الهواء خارج إقطاعيته، وإن حاول ذلك كان عقابه الكي بمياسم عريضة تطبع العبودية على جبينه مدى الحياة، تجد الناس في الشرق الإسلامي يعيشون

ويتنقلون أحرارًا في أرض الله الواسعة من المحيط الهادي إلى المحيط الأطلسي، ويتاجرون مع جنوب إفريقيا والدول الإسكندنافية وربما مع (جزر الكاريبي)!!.

أوروبا التي كان أفضل نموذج لوحداتها الإدارية هو حكومات (الكوميون) في إيطاليا، تجد الشرق المسلم يعيش أرقى النظم الإدارية في ممالك تبلغ مساحتها مساحة القمر!!.

أوروبا التي يحكمها الأباطرة حكمًا استبداديًّا مطلقًا، ويعتقد الرعايا أن القيصر من نسل الآلهة، وأن الله هو الذي أعطاه هذا الحق قدرًا وشرعًا وأورثه لسلالته المقدسة، تفاجأ بالمسلمين وسلاطينهم من الترك تارة، ومن الكرد أخرى، ومن المماليك ثالثة، والكل بشر في نظر سائر البشر[1].

أوروبا الغارقة في الهمجية والوحشية التي تحرق المخالفين وهم أحياء، وتتفنن في تعذيب المنشقين وإذلال المقهورين، ولا تعرف عهدًا ولا ميثاقًا، تبهرها الأخلاق

---

(١) ظهر في العالم الإسلامي من يدعي دعوى أباطرة أوروبا وبابواتها كالعبيديين المتلقبين بـ(الفاطميين) وأشباههم، ولكنهم كانوا منبوذين من عامة الأمة؛ لأن نور الكتاب والسنة جعل العامة من المسلمين أرقى فكرًا من كثير من فلاسفة أوروبا الذين يؤمنون بهذه الأساطير مثل ما كان يعتقد (هيجل) في طواغيت روسيا!!.

الإسلامية في الحرب والسلم سواء[1].

أوروبا التي ما كانت تحسب العالم إلا أوروبا، والتي تسمي الوصول إلى شيء من أطراف الشرق اكتشافًا[2]، وظلت هكذا إلى القرن التاسع عشر، فوجئت بالمسلمين يجوبون الدنيا شرقًا وغربًا تجّارًا ورحّالة ودعاة، بكل تواضع وهدوء، لقد وصلوا إلى أجزاء من شمال أوروبا قبل أن تعرفها أوروبا نفسها، هذا عدا العالم الشرقي الهائل السعة بالنسبة لها برًّا وبحرًا[3].

---

(١) حسْب أي منصف أن يرى كيف يعيش النصارى في مصر والشام وغيرها حتى يومنا هذا، مع أنهم منذ الفتح الإسلامي في القرن الأول حتى الآن ليسوا سوى أقلية ضئيلة في محيط إسلامي كبير، ويقارن ذلك بالإبادة المستأصلة التي نـزلت بمسلمي الأندلس على يد أوروبا النصرانية في العصر المسمى عصر النهوض!!.

(٢) انظر مثلًا كتاب: اكتشاف جزيرة العرب، وقد أقر المحقق التسمية لا بلسان الحال فقط، بل بلسان المقال، وهذا حال من تقمص عدوه وذاب في حضارته!!.

(٣) هذه الفوارق ـ وغيرها كثير ـ مع أن المسلمين كانوا عند قيام الصليبيين بحركاتهم الاستكشافية مقصرين في العمل بأحكام الإسلام والتمسك بحقيقته، وفي اعتقادي أن أوروبا لو رأت أخلاق النبوة المتمثلة في الجيل الأول الذي شهدته مستعمرات الإمبراطورية البيزنطية لأسلمت نفسها لله كما فعل أولئك، ولآمن كثير من الصليبيين ولو قطعهم البابا إربًا إربًا، ولكنها حكمة الله في عقوبة هؤلاء وإضلال أولئك.

وما المساجد التي اكتشفت في (جزر الكاريبي) وصرخ (كولومبس) حين رآها قائلًا: «يا إلهي!! حتى اليابان فيها مساجد؟!!» إلا أحد الشواهد الثابتة على هذا.

أوروبا التي كانت تتداوى بمركّبات من الروث والبول وأشلاء الحشرات الميتة، تفاجأ بالعالم الإسلامي زاخرًا بالمستشفيات والمعامل القائمة على منهج التجربة والاستقراء؛ مع الخبرة والحدس في التشريح والتشخيص والجراحة وتركيب الدواء، وكل ذلك مدوّن في موسوعات ضخمة ظلت المصدر الأول لنهضة الطب الحديث، ولا تزال رافدًا متجددًا له [(١)].

وإجمالًا: ولدت أوروبا ولادة جديدة، ووجد لديها لأول مرة في تاريخها الشعور بأنها أمةٌ واحدةٌ تواجه عدوًا أبديًّا هو الإسلام، وكانت طفولتها في ذلك العصر الذي سمي (عصر

---

(١) عندما سقطت الأندلس في يد (فرديناند) و(إيزابيلا) أصدرا أمرًا بهدم كل الحمامات، وسنّت الكنيسة قانونًا يعتبر الاغتسال عادة إسلامية؛ وقرينة لمحاكم التفتيش على أن فاعله لم يتنصر على الحقيقة، وفي ظل هذا الحكم الكاثوليكي ازدهرت تجارة البول البشري للتداوي به، فقد كان الغرب مبهورًا بالحضارة الأندلسية لدرجة أن أبوال الناس في الأندلس هي أفضل أنواع الدواء!! (كل هذا فصّله أحد المستشرقين الأسبان المعاصرين، ولعل الله يهيء لإخراج مادة عن هذا الموضوع الصارخ الدلالة).

النهضة) أو الانبعاث الذي تعمّدت ألا تجعله يبدأ تاريخيًّا بمعرفة الدين الرباني واكتشاف حضارته العظمى، بل بلحظة الإبحار العكسي إلى الجاهلية الإغريقية واكتشاف (أرسطو).

إن ولادة أوروبا في ظل الحروب الصليبية وشعورها بذاتها من خلالها هو الذي يفسر تلك التناقضات الصارخة التي يعيشها الفكر الغربي متمثلة في هذه المعادلات الصعبة:

* تعصب صليبي على الإسلام من (بطرس) الناسك إلى (كلاوس)[1]. يوازيه داخليًّا تمرد كامل على دين الصليب.

* ازدراء مطلق للعصور الوسطى باعتبارها عصور إيمان، يوازيه تحيز فاضح لها إذا قورنت بنظيرها التاريخي في الإسلام!!.

* الحكم بالسذاجة والبدائية على الفكر الإغريقي باعتباره نقطة البداية في مسيرة الحضارة الغربية، يوازيه الحكم عليه بالعظمة والإبداع بالنسبة للحضارة الإسلامية.

ولقد صدق أحد المفكرين الغربيين حين قال في وصف هذه الحالة من التناقض: (كانت أوروبا تعبد (أرسطو) وتلعنه في

---

(١) الأمين العام لحلف الناتو الذي قال بكل وضوح: ((إن العدو الذي يعمل الحلف لمواجهته بعد سقوط الاتحاد السوفيتي هو الإسلام)).

آنٍ واحدٍ). وهو التناقض الذي يدفع المسلمون ثمنه للحضارة الغربية إلى الآن.

ولئن كانت كتب (أرسطو) بمنزلة الكوة الصغيرة التي نفذت منها أوروبا في انفلاتها من سجن الكنيسة المظلم، فإنها لم توصلها إلى برّ الأمان، بل إلى نفق الجاهلية الإغريقية التي لم تخرج منه إلا إلى صحراء القلق والضياع التي يصطلي الإنسان الغربي المعاصر بلهيبها.

ومع أننا لا ننسى إطلاقًا مسئولية الأمة الإسلامية في كل ما حدث ويحدث، فإننا سنتجاوز هذا لننظر نظرة مجردة كيف أصبح الوليد عملاقًا ماردًا، أي: كيف تشكلت أوروبا الحديثة؟.

وللإجابة الإجمالية عن هذا نقول:

إن هناك اتفاقًا عامًا لدى مؤرخي الفكر الأوروبيين على أن النهضة الأوروبية قامت على دعائم ـ أو حركات ـ ثلاث:

١ ـ النزعة الإنسانية (Humanism) وإحياء الآداب القديمة، أي: الانتكاس للجاهلية الإغريقية.

٢ ـ حركة الإصلاح الديني.

٣ ـ النظرة التجريبية.

وفي كل هذه الحركات نجد الأثر الإسلامي ظاهرًا يوازي

ـ إن لم يزد على ـ الثورة العقلية الذاتية على خرافات الكنيسة، والرغبة الفطرية في التحرر من ظلمها واستبدادها، ومع هذا التوازي في الدوافع والأسباب استطاعت أوروبا بدهاء شيطاني أن تحتفظ بأسبابها الذاتية وتمدها إلى نهايات بعيدة، أما الخط الآخر فأسدلت عليه حجبًا كثيفة من الإهمال والتناسي.

فالنزعة الإنسانية مَدينةٌ كليًّا للحضارة الإسلامية، ولا ينحصر ذلك في الأثر الأدبي (اقتباس أبرز ممثليها وهو دانتي من أبي العلاء وابن طفيل) بل يشمل العصر كله، حتى أن الإمبراطور فردريك الثاني ـ وهو أكبر أباطرة القرون الوسطى بإطلاق، ويعتبر لدى بعض المفكرين أول المحدثين ورائد النهضة ـ كان يتكلم العربية، وكان بلاطه عربي العلم واللسان، حتى إنه حينما قابل الملك الكامل الأيوبي للصلح لم يحتج إلى مترجم، ولهذا اتهمته الكنيسة بالإسلام، وسمّته الزنديق الأعظم!![1].

أما حركة الإصلاح الديني فلم تولد مع (لوثر) و(كالفن)، بل لها جذور عميقة الصلة بالإسلام لا يستطيع أي باحث أوروبي أن يغفلها مهما قلل من شأنها، ومنها (حركة تحطيم الصور والتماثيل) التي اجتاحت الإمبراطورية البيزنطية في أوائل القرن

(١) انظر كتاب (جاي ديس) (الزنديق الأعظم) معرّبًا.

الثامن الميلادي ـ أي بعد قرن تقريبًا من ظهور الإسلام ـ وممن آمن بذلك وأصدر مرسومًا عامًا به الإمبراطور (ليو الثالث)[١].

صحيح أن التوراة حرّمت ذلك[٢]، ولكن الكنيسة أحلته فيما حرّفت من شريعة الله ووصاياه، وكل ما فعلته تحويل الناس من تصوير العظماء الدنيويين إلى تصوير المسيح وأمه والقديسين عندها.

أما التجريب الذي تعزى إليه نهضة أوروبا العلمية عامة، فإن باعثه الظاهري هو التساؤل العقلي الذي افترقت عليه الفلسفة القديمة، وهو: أيهما أصدق الفكر المجرد، أم التجربة الحسية؟.

ولم يكن صعود (جاليليو) إلى البرج وإسقاط جسمين غير

---

(١) واستمرت الحركة إلى عهد الإمبراطورة (إيريني) التي كانت معاصرة لهارون الرشيد رحمه الله حيث انتصرت الدعوة إلى الوثنية وأقر مجمع (نيقيه) الثاني سنة (٧٨٧م) التماثيل والتصوير، وهكذا أغرقت أوروبا في الوثنية ولا تزال.

(٢) في سفر اللاَّويين الإصحاح التاسع عشر: ((أنا الرب إلهكم، لا تلتفتوا إلى الأوثان، وآلهة مسبوكة لا تصنعوا لأنفسكم))، وفي الإصحاح السادس والعشرين: ((لا تصنعوا لكم أوثانًا، ولا تقيموا لكم تمثالًا منحوتًا أو نصبًا، ولا تجعلوا في أرضكم حجرًا مصورًا لتسجدوا له))، ونحوه في سفر الملوك الأول الإصحاح الرابع عشر، ومواضع كثيرة من أسفار الأنبياء.

متماثلين في الوزن إلا تدليلًا على بطلان قول (أرسطو) في ذلك[1].

ومن هنا فإن الفكر الإسلامي ـ السني خاصة ـ الذي رفض فكر (أرسطو) رفضًا مطلقًا، ودعا ـ وفقًا لصريح القرآن ـ إلى نبذ تقليد السالفين، والتأمل في ملكوت السماوات والأرض، والنظر في آيات الله الآفاقية والنفسية هو أصل تقدم الإنسانية الحالي كلها، وما فعله (جاليليو) بالنسبة لحركة الأجرام السماوية ما هو إلا جزء من الأثر السني الذي شمل العالم، وصرع المنطق الصوري الإغريقي في الشرق قبل أن تتخلص أوروبا منه بعدة قرون[2].

وعلى أية حال انطلقت أوروبا في نهضتها بعيدًا عن الدين، وسوف نتتبع خط سيرها مقتصرين على الجانب المقصود، خاصة الأدب والفن، الذي تنعكس على صفحات محيطه المتماوج الأوجه المتعاورة لأوروبا في مراحلها التاريخية المتتالية:

---

(١) يرى أرسطو حسب النظر العقلي المجرد أن أثقل الجسمين يقع على الأرض أولًا، في حين أثبت جاليليو بالتجربة وصولهما معًا؛ وبذلك تبين أن عوامل غير الكثافة (فراغ الوسط أو تخلخله) هي المؤثرة في سرعة السقوط.

(٢) رغم الثورة العنيفة في الفكر الأوروبي على منطق أرسطو لم يستطع أي فيلسوف أوروبي ولا (هيجل) أو (جون مل) أن يكتب في (نقض المنطق) مثلما كتب شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله وأنى لهم ذلك!.

كان جمود الآداب جزءًا من الجمود المطلق في ظل الكنيسة، حيث كان العلم ـ وبالأصح معرفة القراءة والكتابة ـ منحصرًا في رجال الدين، وأسوأ من ذلك أنه كان بلغة ميتة (اللاتينية)، وهي لغة معقدة الأسلوب والقواعد في حين كانت أوروبا تتكلم لهجات كثيرة متباينة.

أما المعايير الفنية للأدب والبلاغة والشعر والمسرح فكلها مصفَّدة بآراء (أرسطو) ونظرياته، وغاية العبقرية والإبداع والتجديد أن يستنبط الأديب أو الناقد من كلام (أرسطو) شيئًا، أو يفرع عليه آخر، أما الخروج عليه فهو المحال.

فالملحمة ـ وهي التي ينعى الأوروبيون على أدبنا العربي خلوّه منها ـ ظلت خلال القرون الوسطى والعصر الحديث محكومة بتلك القواعد المتزمتة والتقاليد الثابتة، ومنها ضرورة الاستهلال بالتضرع إلى ربّات الشعر مثل: (كليوبي)، فالشاعر الإغريقي (هوميروس) يتضرع إليها في ملحمته، وكذا تضرع صِنْوُه (هزيود)، وعلى إثرهما نجد (دانتي) المسيحي يتضرع إلى أبولو (إله الشعر) في الكوميديا، وكذلك تضرع (ميلتون) إلى (أورانيا) (ربة علم الفلك) في ملحمته الفردوس المفقود!! تعالى الله عما يشركون.

وفي الشعر نجد التقيد المطلق بما ورثه القدماء في

المضمون والشكل، ومن ذلك الالتزام بالمقاطع وعدد الأبيات في كل مقطع، وعدد التفعيلات أيضًا.

أما النقد فكان ما قرره (أرسطو) هو المعيار الدقيق، وكانت المحاكمات الأدبية تتخذ كلامه دستورًا.

وهكذا لم تكن الكلاسيكية إلا تعبيرًا واضحًا عن اعتقاد أوروبا الكمال المطلق لعمالقة الفكر الإغريقي، وعلى رأسهم (أرسطو).

والمهم أن أوروبا النصرانية قدست (اللاتينية) تقديسها للنص الديني نفسه، وقدست معايير (أرسطو) الفنية تقديسها لعلم الكلام الكنسي المنقول عن الفكر الإغريقي.

ومن هنا كانت الحركة الأدبية المتحررة موسومة منذ البداية بالإلحاد والزندقة، وكان لابد لدعاتها من التسلح بقدر كبير من المغامرة والجرأة.

إنه ليس تحررًا من القيود الأدبية، ولكنه تحرر من القبضة الكنسية الجائرة.

وكانت الزحزحة الأولى حيث ظهر حدثان أدبيان كبيران:

أولهما: الكوميديا الإلهية للشاعر الإيطالي (دانتي) (١٣٢١م) أبرز رواد عصر النهضة ـ معه مثل: (بتراك)، (دافينشي)، (تشوسر)، (مايكل أنجلو) ـ؛ وبذلك سجلت

أوروبا كما يقول (برتراند رسل): (وثيقة التحرر الأولى!!).

أما وثيقة التحرر الأخرى: وهي أعظم من الأولى فكانت على يد المصلح الكنسي (مارتن لوثر)، ذلك المتدين الثائر الذي هاله ما رأى من فظائع البابوية، فكتب وثيقة الاحتجاج المشهورة سنة (١٥١٧م) وجعلها خمسة وتسعين بندًا، وعلقها على مدخل كنيسة (ويتنبرج)، وليست هذه هي وثيقة التحرر التي نريد هنا ولكنها انبثقت منها [1].

إلا أن أحدًا من الناس حينئذ لم يطلق على هذا اسم الحداثة (موديرنزم) بمصطلحها الأدبي، ذلك أن الخلاف بين (لوثر) والكنيسة أكبر من أن يكون في الأدب أو اللغة.

وظهر بعد اللوثرية مذاهب وألوان دينية جديدة لاسيما في

(١) فقد ترجم (لوثر) الإنجيل إلى اللغة (اللهجة) الألمانية الدارجة، وكانت أوروبا قد عرفت المطبعة لأول مرة على يد (جوتنبرج) الألماني، فكانت طباعة الإنجيل مترجمًا بلغة غير اللاتينية هي الوثيقة الأدبية الأم، وإن شئت فقل هي: (البيان الحداثي الأول). هذا الرأي الذي نقوله يبدو مخالفًا للسائد في تاريخ الحداثة عند كثيرين، لكن لا جرم أن البدايات الفكرية دائمًا موضع اختلاف، على أن من تأمل مليًّا ظهرت له وجهة نظرنا، انظر مثلًا: حكمة الغرب: برتراند رسل، ترجمة فؤاد زكريا، (١٩٨٣م)، الكويت، (ص١٧-٤٢).

القرن السابع عشر، وكان من أهم أسباب ظهورها انتشار الإنجيل بلغات حية كثيرة، فدخل الجميع من الباب الذي فتحه (لوثر)، ومنها (الكالفينية= كالفن) (الجزويت= أجناثيوس) (الكويكرز= جورج فوكس) (الويزلية= جون ويزلي)، ومع أنها اتجهت كلها تقريبًا لمحاربة الكنيسة الكاثوليكية أو مخالفتها، فقد برزت في المقابل محاولات لإعادة الوحدة الدينية لأوروبا.

ولكن حدث في المرحلة التالية من الدواهي ما أذهل الكنائس جميعها، وأنساها شيئًا من الخلافات فيما بينها، وإن شئت فقل: غمرها إلى حين.

ونعني بذلك التحولات الكبرى في الحياة الأوروبية التي يسمونها جميعًا ثورات، وأهمها:

١- الثورة العلمية.

٢- الثورة الفرنسية.

٣- الثورة الصناعية.

ويهمنا الآن الحديث عن الأولى منها:

لقد كان العلم (وتدقيقًا: العلم وموقف الكنيسة الأحمق من العلماء) يمثل الثورة الكبرى التي نسفت خرافات الكنيسة، وأطاحت بعرشها وقوضت وجودها الطاغي إلى الأبد، كما نسفت

في الوقت نفسه مكانة (أرسطو) ونظرياته في العلم والفن والحياة.

وقد صدرت بيانات هذه الثورة تباعًا:

١ -نظرية (كوبرنيج) عن الأجرام السماوية (١٥٤٠م).

٢ -تطوير النظرية على يد (تيكو براهي) (١٥٧٥م).

٣ -نظرية (جاليليو) في الحركة وصنع المرقب (١٥٩٧م).

٤ -قوانين (كبلر) الثلاثة (١٦٢٠م).

٥ -نظرية الجاذبية وقوانين الحركة لـ(نيوتن) (١٦٨٧م).

٦ -أول نظرية كونية وضعها (لابلاس) (١٧٨٠م).

وصاحب ذلك متأثرًا به نظريات سياسية واقتصادية واجتماعية قدمت بيانات مساندة للثورة:

١ - المكيافيللية في السياسة: (مكيافيللي) يؤلف (الأمير) (١٥١٣م).

٢ - ظهور الفلسفة الحديثة على يد (ديكارت) (١٦٥٠م).

٣ - النظرية الطبيعية للدولة والمجتمع (التنين) (هوبز) (١٦٧٩م).

٤ - (سبينوزا) (١٦٧٧م) يؤسس مدرسة النقد التاريخي للكتب النصرانية المقدسة[١]، ويجاهر بنبذ النصرانية في

---

(١) لم يبق لدى الباحثين المعاصرين شك في أن (سبينوزا) ـ وهو يهودي =

السياسة والأخلاق، والاعتقاد بوحدة الوجود.

٥ - تطوير نظرية (هوبز) وفلسفة (ديكارت) على يد (لوك) (١٧٠٤م).

٦ - (فيكو) (١٧٤٤م) ينادي بإحلال الوضع الإنساني محل الوحي الإلهي.

٧ - آراء جديدة في المنطق، (باركلي) (١٧٥٣م).

٨ - رفض النصرانية والإيمان بالشك المطلق، (هيوم) (١٧٧٦م).

٩ - ولادة النظرية الرأسمالية في كتاب (ثروة الأمم) (آدم سميث) (١٧٧٦م).

١٠ -نظرية العقد الاجتماعي وتقديس العاطفة لا العقل، (روسو) (١٧٧٨م).

١١ -(فولتير) (١٧٨٤م) يجاهر بالكفر بالأديان ويطالب بمجتمع علماني.

١٢ -(ديدرو) (١٧٨٤م)، والموسوعيون الفرنسيون يضعون

=

أندلسي فر من الاضطهاد الكاثوليكي بعد سقوط الدويلات الإسلامية بالأندلس ـ قد بنى نظريته على الأساس المنهجي الذي وضعه ابن حزم في (الفِصَل).

دائرة المعارف لتكون بديلًا عن الكتاب المقدس، كتبت بين عامي (١٧٥١م-١٧٧٧م).

وهكذا نكون قد اقتربنا من الثورة الثانية التي هي نتيجة لهذه الأولى، ففي سنة (١٧٨٩م) حدثت الثورة الفرنسية فأضحت معلمًا فاصلًا، لا في تاريخ الفكر والأدب فحسب؛ بل في التاريخ عامة.

ومنذ عصر النهضة حتى ظهور الثورة الفرنسية كانت الكلاسيكية هي السائدة على الأدب الأوروبي.

وقيمة الأدب الكلاسيكي تتمثل في مضمونه الأخلاقي، والتزامه المدرسي، وحديثه الدائم عما ينبغي أن تكون عليه الحياة.

فالنهايات الكلاسيكية ـ في المسرحية والملحمة سواء ـ تأتي دائمًا انتصارًا للحق والفضيلة، إنه دعوة إلى الحكمة العملية لكنها لا تخاطب الناس باسم الدين ضرورة، كما أنه كان في جوانب منه لا يهدف إلى أكثر من إعطاء أكبر قدر من المتعة للقارئ، ولو كانت متعة لغوية تقوم على أنواع المحسنات اللفظية وإثبات القدرة على الحذلقة، وكان المسرح من احتكار الطبقة الأرستقراطية (الملوك والنبلاء) تفوح منه روائح العهر والفحش والإباحية وغمزات دائمة للدين ورجاله.

ونتيجة التغييرات الطارئة، وجريًا على سنة التذبذب في التاريخ الأوروبي؛ تحول الأدب الأوروبي من الكلاسيكية إلى نقيضتها الرومانسية.

والرومانسية هي ارتداد صوفي، ولكن موضوعه ليس الرب كما في رهبانية النصارى، بل الطبيعة، وهي لا تهدف إلى التوجيه العقلي للناس عن طريق حكمة القدماء، بل إلى الإشباع العاطفي الذي يجعل الذات محور العالم، إنها مزيج من اليأس الرهباني، والهروب من الواقع الذي كلما تقدمت المعرفة العقلية أظهرت أنه أكثر قتامة وكآبة.

وهكذا كان محورها الدائم هو البؤس ـ البؤس الديني ـ كما في (الفردوس المفقود)[1]، أو البؤس العاطفي والنفسي الذي عبّر عنه (روسو)!!.

فلئن كان الأوروبيون قبل اعتناق النصرانية يعبدون الحجارة والأشجار والحيوان والكواكب؛ فإن الرومانسية الهاربة من النصرانية قد جمعت هذه الأوثان جميعًا في صنم واحد سمته (الطبيعة)، وجعلت محل التراتيل الكنسية تلك الأشعار الوجدانية التي تتعشق المعبود الجديد، كما فعل رمزها الكبير

(١) (ملتون)، أو البؤس الأخلاقي، كما في البؤساء لـ(فيكتور هوجو).

(روسو) في (راهب سافوي).

حقًّا وجد الفكر الأوروبي في الرومانسية راحة من الكد المنطقي الذي أرهق مفكري عصر النهضة وما بعدها نتيجة البحث العقيم في الكليات والماهيات، والعلاقة بين العقل والمادة والتطلع اليائس إلى معرفة كنه الأشياء منطقيًّا، واستطلاع الميتافيزيقيا (ما وراء الطبيعة)!!.

كما وجدوا فيها مهربًا من الالتزام بالمعايير الخلقية عامة، واستطاعوا إحلال المعايير الجمالية المجردة محلها.

كما كانت الرومانسية ملاذًا لأولئك النفر الذين أزعجتهم الحروب القومية والدينية التي لم تهدأ قط[1]، حيث فتحت لهم مجال تعويض الذات القانطة المغتربة في صراع ليس له ما يسوغه عندها، كما فعل (همنغواي) في (وداعًا أيها السلاح) بعد حوالي

---

(١) الحرب هي شأن الحضارة الغربية الدائم، ومن أبرز الأمثلة عليها: حرب المائة عام، وهي في الواقع أكثر (١٣٣٧-١٤٥٣م) بين فرنسا وبريطانيا، أما الأسباب فكانت من التفاهة بحيث تثير الاشمئزاز مثل: تتويج طفل رضيع ليكون ملكًا، أو زواج أحد الملوك بملكة دولة أخرى فينتج عنه الاختلاف على ولاية العهد، ناهيك عما إذا اعتنق أحد الملكين مذهبًا يخالف الآخر!!، وهكذا فإن الشعارات الجوفاء التي لا يمل الغرب من تكرارها عن السلام والاستقرار ما هي إلا تعبير عن الشعور بالذنب من تاريخ طويل لا يعرف الهدوء ولا الأمن.

قرنين.

ثم كان القرن التاسع عشر هو قرن التغيرات الكبرى في كل مجالات الحياة الأوروبية:

- الثورة الصناعية تعم أرجاء القارة، حاملة الكوارث الاجتماعية مع التقدم المادي الكبير.
- الرأسمالية بوجهها الكالح تسيطر على أوروبا، وتحفز الأوروبيين للتنافس الضاري على خيرات العالم كلها، حيث كان العصر الذهبي للتوسع الاستعماري والاحتكار التجاري.
- الثورات السياسية تجتاح القارة مزلزلة بقايا الإقطاع والأنظمة الملكية.
- الفلسفة المثالية تسود القارة وخاصة ألمانيا، والمذهب النفعي يسيطر على إنجلترا.
- خارطة أوروبا تشهد تغييرات مفاجئة متلاحقة، فمثلًا: إمبراطوريات تسقط وولايات تصبح إمبراطوريات، دول تنكمش وأخرى تختفي!! [1].

---

(١) وهذا شأن أوروبا إلى اليوم، فخريطتها السياسية تتعرض لتحديث مستمر =

- التعصب القومي يبلغ ذروته (جذور الفاشية، جذور النازية، والحركة الصهيونية).
- ظهور الحركات المتطرفة كالماركسية، العدمية، الفوضوية.

ولعل أكبر الأحداث الفكرية في أول القرن هو ظهور الفلسفة الوضعية التي نادى بها (كونت) (١٨٥٧م) دينًا جديدًا للإنسانية.

ثم تلاها البركان الذي تجاوبت أصداؤه في أنحاء القارة كلها، وأحدث انقلابًا عامًا في الأفكار والآراء والمعتقدات التي توارثتها أوروبا ـ بل الإنسانية ـ قرونًا طويلة، وهو البركان الذي فجّره (داروين) في كتابه: (أصل الأنواع) المشتمل على نظرية التطور العضوي والانتقاء الطبيعي.

وقد وصلت سيول الحمم التي قذفها البركان إلى أرجاء المعمورة كافة نتيجة جهود عظيمة قام بها أناس متعددو الاتجاهات، لكنهم متفقو الدوافع على ما يبدو، ومن أبرزهم

=

لا نظير له في أي مكان من العالم، وفي ذلك الدلالة الكافية على أنها أمم لا تعرف الطمأنينة والاستقرار لا على المستوى النفسي ولا على المستوى الاجتماعي.

اليهود الثلاثة: (ماركس)، (فرويد)، (دوركايم)[1]، وتبعهم بالطبع جموع هائلة من المغررين أو المسيَّرين في كل مكان.

هذا الحدث المذهل أثار حفيظة دعاة القديم، وبالأخص رجال الكنيسة فاستجمعوا قواهم واستنجدوا بكل حميم، وخاضوا معركة كان فيها حتفهم، وانقشع الغبار عن سقوط آخر قلاع الكنيسة وخروجها كليًّا عن ميدان الصراع الفكري العام، واندحار الدعاة الأخلاقيين ودعاة الالتزام عامة، ولم يبق لهم إلا شراذم في (حزام الإنجيل)[2] وشبهه.

---

(١) ورابعهم المتفلسف المعتوه (نيتشه) الذي استبطن عقيدة (الشعب المختار)، فنادى بنظرية الإنسان الأعلى (سوبرمان)، واستظهر بـ(الداروينية) ليقول: (إن الرب قد مات)، تعالى الله عما يقول الظالمون علوًّا كبيرًا، وإنما كان الميت هو رب الكنيسة الذي لا وجود له إلا في أذهان عبدة الصليب. ولم يقبل عقل (نيتشه) ـ إن كان بقي لديه عقل ـ أن يدعو نفسه وقومه إلى دين الإسلام وهدي محمد ﷺ، بل دعا إلى المجوسية وألّف (هكذا تكلم زرادشت). وصدق الله تعالى حين قال عنهم: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّـٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَـٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٥١].

(٢) الولايات المتعصبة في الجنوب الأمريكي، وهي لا تزال حتى اليوم ترفض نظرية (داروين)، وليس هذا هو المشكل في ذاته؛ ولكنها تقر أن الله خلق الكون كله حوالي سنة (٤٠٠٠) قبل الميلاد، حسب تقاويم التوراة =

وهكذا كان الغرور الهائل الذي أوحت به النظرية، والثقة في التقدم المطلق في كل المجالات الذي أسهمت فيها الاكتشافات العلمية المذهلة حينئذٍ، وكانت نهاية المطاف ظهور النظرية النسبية في أوائل القرن العشرين (١٩٠٥م).

ونتج عن ذلك تنكُّر مخيف للماضي بكل ما فيه، وقطع متعمد للأواصر الرابطة به، وثورة شاملة على الأخلاق والتقاليد، لم يسبق لها نظير من قبل.

في هذا الجو المحموم تأرجح الأدب واستقر في اتجاه مضاد هو (الواقعية).

والواقعية تعني ـ أوضح ما تعني ـ: السقوط من خيال الرومانسية إلى أرض الواقع، فالمحور ليس الشاعر بل العامل والفلاح والموظف الصغير، والنزول من برج اللغة المعقدة المتأنقة إلى احتضان اللهجات المبتذلة، والصراحة في عرض ما

=

المختلفة!!، وأشهر من دخل معهم في صراع حول تدريس هذه النظرية: الرئيس الأمريكي (كلينتون) حين كان حاكمًا لإحدى الولايات المذكورة، (انظر التفصيل في كتاب: بيل كلنتون). ومع هذا فالعلمانيون العرب لا يجدون مثالًا للتعصب الفكري والجمود العقلي؛ إلا بعض الخطباء أو العلماء الذين يعترضون على الروايات التي تفيض بالزندقة والإلحاد سبًّا وشتمًا لا فكرًا وبحثًا!!.

يدور في النفس الإنسانية بلا مواربة، فالحبيبة ـ هنا ـ ليست ملاكًا تحوم حوله الأشواق المثالية؛ بل هي جسد تظمأ له رغبات الجوارح.

القضايا الكلية ليست ما يتعلق بحقيقة الوجود وغاية الإنسان فيه، وإنما هي الهدف اليومي للفرد العادي.

وعلى المستوى العام بقيت في أوروبا إلى مطلع القرن العشرين بقايا من الأوضاع الاجتماعية الموروثة وشيء من القيم الشاحبة: (الأسرة، الرابطة القومية، احترام ظاهري للعهود والمواثيق، نوع من الالتزام بالمبادئ الأخلاقية)، وهذه البقايا عصفت بها الرياح الهوجاء التي حملت دخان الحرب العالمية الأولى إلى أرجاء القارة، ومنها إلى أطراف العالم الأخرى.

وأسفرت تلك الحرب ـ مما أسفرت عنه ـ عن انكسار حاد في نظرة الإنسانية إلى مصيرها وانقلبت الثقة والتفاؤل خيبة وتشاؤمًا، وأفاق الإنسان الأوروبي المخدر بنشوة التقدم المطلق؛ على المدافع وهي تدمر ـ مع القلاع والمدن ـ أحلامه بيوتوبيا[1] علمية إنسانية، لقد كان فصلًا جديدًا من مسرحية

(١) اليوتوبيا: مصطلح فلسفي يقابل (المدينة الفاضلة) عند المتفلسفة الإسلاميين، وهي تعبير عن أحلام وخيالات الفلاسفة المثاليين القانطين =

التاريخ الأوروبي حيث اختفى مشهد (بروميثوس) وظهر مشهد (سيزيف)[1].

في هذا الوضع الخانق تنادت الأصوات للعودة إلى شيء من المسلّمات الثابتة والالتزامات الإنسانية، وظهرت نقاط (ويلسون) الأربع عشرة، ثم الالتفات حول شبح عصبة الأمم.

وكانت فترة مابين الحربين من أعظم الأحقاب في التاريخ الأوروبي هيجانًا وصراعًا، ولاسيما في الميدان الفكري، حيث تضاربت الدعاوى والاتجاهات وظهرت مذاهب جديدة في كل فن، ومعايير جديدة في كل علم، ومجموعات اجتماعية غريبة.

وفي ظل هذا الهيجان نمت ظاهرة الشعر الإنجليزي الحر،

=

من صلاح البشرية والرافضين لهدى الله وشريعته، كما أن متفلسفة رجال الدين مثل (أوغسطين) حلموا بمدنية تجسد خيالاتهم.

(١) (بروميثوس) الرمز الأسطوري للإنسان الذي سرق النار من الآلهة! (وهو ينطبق على أوروبا في مرحلة النشوة بالانتصار على الكنيسة بواسطة العلم).

و(سيزيف) أسطورة إغريقية أخرى مضمونها أن الأرباب حكمت على (سيزيف) بأن يحمل صخرة إلى قمة الجبل، وكلما وصل القمة تدحرجت، ثم عاد ليحملها إليها مرة أخرى فتتدحرج من جديد وهكذا دواليك، وقد جعلها (ألبير كامو) رمزًا لفلسفته العبثية.

وتألق (إليوت)[1] أبرز شعراء الحداثة، أما الشعر الفرنسي الحر فقد ظهر قبل ذلك بكثير.

وفي الجانب الآخر قفز العلم التجريبي قفزات هائلة، كان من أعظمها ما سمي اكتشاف الذرة سنة (١٩٣٨م).

وتدور السنون ولم يدرك أكثر الناس مغزى هذا الاكتشاف حتى انفجرت أعنف حروب التاريخ وأشدها هولًا (الحرب العالمية الثانية، هناك ذهلت أوروبا بجحافل (هتلر) وهي تدك (باريس)، وقذائفه وهي تغطي سماء (لندن)، وكتائبه وهي تسحق (لينينجراد)، ولكن الذهول الأكبر كان ساعة الانتصار حيث سقطت القنبلة الذرية على (هيروشيما)[2]، كان إعلان

---

(١) وقد ارتد (إليوت) إلى الكاثوليكية وأصبح يكتب كأشد القساوسة تعصبًا، ولكن الداخلين في جحر الضب من الحداثيين العرب يتغافلون عن هذا، ونظيره في ذلك الكاتب: (جراهام جرين) الذي ارتد عن الاشتراكية إلى الكاثوليكية، وهكذا نجد العودة إلى الدين الباطل غير مستنكرة في الغرب، أما العودة إلى دين الله فهي في نظر المتعلمنين ظلامية ونكوص وتخلف!!.

(٢) ألقت أمريكا ـ التي لا تفتأ تتهم المسلمين بالإرهاب وتتشدق بحظر أسلحة الدمار الشامل ـ تلك القنبلة الجهنمية على المستشفى العام في المدينة، فتبخر مثل نقطة ماء على صفيح ملتهب وتفحم ما حوله من المدينة، حيث لم تكن هناك أية قاعدة عسكرية، ولم يكن من بين مئات من الضحايا عسكريون إلا من كان موجودًا اتفاقًا أو في إجازة!!.

انتصار الحلفاء، وفي الوقت نفسه إعلان وقوف الإنسانية على حافة الهاوية الكبرى.

وفي هذه الأجواء الخانقة والمشاهد الفظيعة ظهرت ألوان من الآراء والمذاهب أكثر قتامة وعبوسًا، وأكثر شعورًا بتفاهة الحياة وعبثها.

لقد انهارت الآمال الكبرى في التقدم والثقة في عقل الإنسان!!.

أما الآلة التي أراحت الإنسان من عناء العمل اليدوي المرهق، فقد أصبحت صنمًا يسحق إنسانية الإنسان، بل معبودًا جبارًا ينتقم من الجنس الإنساني بوحشية لا نظير لها في التاريخ كله!!.

لم تعد المأساة تتمثل في أرض (يباب) فحسب، بل أصبحت (طاعونًا)[1]، واتسعت دائرة البلاء بواسطة وسائل الاتصال المتقدمة والتدفق المسيطر للمعلومات، ليصبح الإنسان في جزر الهند السحيقة، وحوض الأمازون، وأحراش أفريقية يعيش مأساة الوجود الحائر، والمستقبل المعتم، ويرى هذا الشبح

---

(١) (اليباب) قصيدة إليوت المشهورة فيما بين الحربين، و(الطاعون) رواية كامو عن الحرب الثانية.

الرهيب معلقًا فوق رأسه.

أما داخل أوروبا نفسها فقد أصبح الفرد العادي يحمل الهموم الكبرى التي ما كان يكابدها في عصور خلت إلا قلة من الفلاسفة التشاؤميين، أمثال (شبنجلر) و(أرويل)، ويعيش الأزمة الخانقة التي ذهبت بعقل (نيتشه)، ودمرت نفسية (شوبنهاور)، وألجأت (تولستوي) إلى المنفى، حتى المسرح الذي كان وسيلة الناس للهروب من الواقع الكالح إلى ميادين من المتعة واللهو وإشغال الوقت، تحول ـ ومعه السينما ـ إلى مسرح عبث ووجودية وفوضوية وعدمية.. إلخ.

لم يعد أحد يتحدث عن (طرطوف)؛ بل عن (دماء الخنازير) وأمثالها [1].

إنها بأصرح عبارة مأساة أمة لم تسلم وجهها إلى الله، ولم تعرف الله بأسمائه الحسنى وصفاته العلى.

إن الذنوب والمعاصي تدمر الأمة، وتنزل بها من موجبات العقوبة ما لا يعلمه إلا الله، فكيف بالإلحاد الصريح المتدفق موجات إثر موجات في ذلك المحيط الهائج المضطرب؟!.

---

(١) طرطوف: ملهاة لموليير. ودماء الخنازير: مسرحية عبثية كان لها دوي كبير في الستينيات، وأمثالها الآن كثير.

ومع اتساع الهوة بين الواقع المعاصر ـ بيأسه وقنوطه ومعضلاته المستعصية ـ وبين النظريات الوضعية ـ الشمولي منها والنسبي ـ ظهر جليًّا عقم الفلسفة، وارتدت في كرة خاسرة يصدق عليها قول أحد كبارها: (إنها ثرثرة تهدف إلى التخلص من الثرثرة)، وتسرب فراغ المضمون هذا إلى الملجأ الهش الذي هرب إليه فلاسفة اللامعقول وهو (الأدب)، وكان الدخول من باب (النقد) الذي باسمه تحولت اللغة إلى موضوع رئيس لجدل فلسفي عقيم، وكان استدراج فروع الأدب كافة إلى هذا المستنقع متلاحقًا وسريعًا، ولعل أوضح الأدلة على ذلك انسياق الماركسية له رغم شموليتها المغالية واعتسافها المطلق للأدب في إطار (الواقعية الاشتراكية)، التي لا تزيد عن كونها نموذجًا مدرسيًّا معاصرًا ـ كما عبّر (جارودي) ـ.

وهكذا تحول الاهتمام ـ وبخاصة في فرنسا ـ عن موضوع الأنا، والعالم، والوجود، والمادة، والعقل.. إلخ، إلى النص، الشكل، التركيب، البنية، الرمز، الأسطورة.. إلخ. كما تحولت الأفكار من المعارك التقليدية بين الفلسفات المنهجية كالحال بين الماركسية والوجودية؛ إلى ضروب جديدة متنافرة من التقلبات الفكرية والجدل غير ذي الموضوع، وهو ما شهده العقد السادس الميلادي الذي يمكن أن يوصف بأنه (عقد البنيوية)!!.

ففي الستينيات برزت البنيوية، منافسًا للوجودية من جهة، وتطويرًا للمادية الجدلية من جهة أخرى، وتغلغلت في كثير من العلوم حتى ظهر منافسها (التفكيكية) في السبعينيات.

واختلفت آراء البنيويين في البنيوية، وذهب بها كل منهم مذهبه، وحدثت نتيجة لذلك فوضى فكرية ما تزال تغمر الفكر الغربي، وقد جلبها اليسار العربي ومؤسساته، وبعض الاتجاهات الوجودية الملفقة إلى العالم العربي، حتى اكتظت بها الملاحق الأدبية في الجرائد اليومية، فضلًا عما عداها، هذا في حين أن الزمن قد عفى عليها في بلادها.

ونظرًا لما حظيت به النظرية ـ ولا تزال ـ في عالمنا العربي، ولكونها تمثل المعلم الفاصل بين مرحلتي الحداثة وما بعد الحداثة، فسوف ينحصر جل اهتمامنا هنا بها مع شيء من التفصيل عن مدارسها وحلقاتها وتطبيقاتها في فروع المعرفة.

مدرسة جنيف:

في القرن التاسع عشر نادى الباحث الاجتماعي اليهودي (دوركايم) بالنظرية المسماة (العقل الجمعي)، ودعا إلى دراسة الظواهر الاجتماعية باعتبارها (أشياء مستقلة).

وتبعًا لذلك ظهر الباحث اللغوي السويسري (فرديناد دي سوسيور) بنظريته في (ظاهرة اللغة)، حيث جرد اللغة من

دلالاتها الإشارية المألوفة وعدها نظامًا من الرموز يقوم على علاقات ثنائية، ومن هنا ظهرت فكرة (البنية).

ومن أبرز ما قرره (سوسيور) بقوة مبدأ (اعتباطية الرمز اللغوي)[1]، وهو ما يعني أن أشكال التواصل الإنساني ما هي إلا أنظمة تتكون من مجموعة من العلاقات التعسفية، أي: العلاقات التي لا ترتبط ارتباطًا طبيعيًّا أو منطقيًّا أو وظيفيًّا بمدلولات العالم الطبيعي[2]، وأن (كل نظام لغوي يعتمد على مبدأ لا معقول من اعتباطية الرمز وتعسفه) أي: تمامًا كما يعتبط العقل الجمعي عند (دوركايم) ويتعسف فيفرض على الناس ما هو خارج عن ذواتهم، ومن هنا انبعثت فكرة (السيمولوجيا) أي علم الدلالة، أو العلامة والإيحاء، وتطورت فيما بعد.

المدرسة الشكلية الروسية:

ويرجع أصلها إلى (حلقة موسكو اللغوية) وهي نوع من

---

(١) انظر البنائية، د. صلاح فضل (ص٣٩)، ومن هنا ينكر الحداثيون المجاز، وقد خدعوا بذلك بعض طلبة العلم إذ تمسحوا بموافقة شيخ الإسلام وابن القيم رحمهما الله، وإنما شيخهم (سوسيور)!! وكلام شيخ الإسلام في اللغة أجل من هذه النظريات وأعمق، وهو جدير بأن تفرد له رسائل علمية من المتخصصين في هذا الميدان.

(٢) انظر مجلة الفصول (م:٥، عدد ٤، ص ١٤٤).

الإلحاد غير الماركسي في روسيا وقد أدمجها (استالين) قسرًا ضمن الواقعية الاشتراكية، لكن نفرًا من روادها هاجروا إلى الغرب وهناك طوروا الفكرة، ومنهم معلمها الشهير (جاكوبسون)، ومن أهم آرائها: «تحرير الكلمة الشعرية من الاتجاهات الفلسفية والدينية» [1]، والانطلاق من (دراسة العمل الأدبي في ذاته)، فهي تؤكد «أن العمل الأدبي يتجاوز نفسية مبدعه، ويكتسب خلال عملية الموضعة الفنية وجوده الخاص المستقل» [2].

وتؤكد أن «العمل الفني لا يتطابق بشكل كامل مع الهيكل العقلي للمؤلف ولا المتلقي»، أو كما يقول: (موخاروفسكي): «فإن الأنا الشاعر لا ينطبق على أية شخصية فعلية ملموسة، ولا حتى شخصية المؤلف نفسه، إنه محور تركيب القصيدة الموضوع» [3].

هذا هو الأساس الذي بالاعتماد عليه يحمل البنيويون النصوص فلسفات وأفكارًا ورؤى لم تخطر لقائلها ببال، بل لم تظهر في عصره ـ إن كان قديمًا ـ وعليه نادى (رولان بارت) أكبر

---

(١) البنائية (ص ٥٥، ٦١، ٦٢).

(٢) المصدر السابق.

(٣) المصدر نفسه.

ناقد في أوروبا كما وصفه الدكتور الغذامي بنظرية (موت المؤلف)!! «وهكذا ابتدأت الشكلية الروسية من دعوتها إلى استقلال الكلمة الشعرية كشيء قائمٍ بذاته، وانتهت إلى استقلال العمل الأدبي عن نفسية مؤلفه من ناحية، وعن الموضوع الاجتماعي الذي يشير إليه بأدواته وإجراءاته الخاصة من ناحية أخرى»(١).

وأكدت هذه المدرسة ضمن استقلالية العمل الأدبي أن لهذا العمل زمنه الخاص، وعارضت (الأفكار الأكاديمية التقليدية) عن تطور الأدب ومساره التقدمي المطرد، وأنكرت فكرة التوالي الطبيعي للمذاهب الأدبية أو توالدها فيما بينها، وحرصت على إبراز حقيقة عدم الاستقرار في الأشكال الأدبية(٢).

وغايرت المدرسة الشكلية الاتجاهات النقدية الأخرى التي تهتم بالمضمون حيث صرفت الاهتمام الأكبر إلى الشكل، جاعلة إياه وسيلة للوعي وتجديد الرؤية، فوظيفة الفن عندها ليس إعطاء رؤية ولا تصوير الواقع أو التعبير عن العالم الطبيعي الموضوعي، وإنما هي استخدام اللغة بطريقة جديدة بحيث يثير

---

(١) البنائية (ص٦٤).

(٢) البنائية (ص١٠١).

لدينا وعيًا باللغة من حيث هي لغة، ومن خلال هذا الوعي يتجدد الوعي بدلالات اللغة، هذا الوعي الذي تطمسه العادة والرتابة على حد تعبير (جورج لوكاش)[1].

وهكذا نصل إلى الفكرة نفسها (موت المؤلف) كما نادى بها (رولان بارت)[2].

حلقات (براغ، كوبنهاجن، نيويورك) اللغوية:

ويهمنا منها أمور نوجزها ما أمكن:

أ- إن أصلها جميعًا هو الشكلية الروسية نفسها، وخصوصًا (جاكوبسون) المحرك الأساسي لحركة (براغ)؛ حيث كان يعمل ملحقًا ثقافيًّا لروسيا بها[3]، ثم أسست على منوالها مدرسة (كوبنهاجن)[4].

ثم حلقة (نيويورك) التي أسست بعد هجرة (جاكوبسون)

---

(١) انظر مجلة الفصول (م: ٥، عدد: ٤، ص ١٤٤).

(٢) واحتذاها عبد الله الغذامي ثم تلميذه السريحي صاحب الكتابة خارج الأقواس، حيث دعا إلى تفجير اللغة، ومضى على اعتبار الشاعر مفعولًا به واللغة هي الفاعل.

(٣) انظر البنائية (ص١٠٩)، ومجلة الفصول، العدد السابق (ص١٤٥).

(٤) البنائية (ص١٢٣).

إليها، حيث التقى بـ(كلود ليفي شتراوس)[1]، وهناك نبت من علاقتهما الفكرية الكثير من عناصر البنيوية الحديثة وأركانها، ثم ما لبث (شتراوس) أن أصبح زعيم البنيوية الفرنسية، كما سيأتي.

ونبغ من هذه الحلقة (نعوم شومسكي) أبرز ممثلي البنيوية الأمريكية!!.

وهنا لابد أن يستوقفنا دور (جاكوبسون) الكبير في تأسيس وتطوير البنيوية، حتى أن بعض الباحثين يلخص تاريخ نشأة البنائية وتشكلاتها المختلفة في شخصيته ومغامراته العلمية ابتداءً من مطلع شبابه في موسكو حتى تخرج على يديه أجيال من الباحثين في أوروبا وأمريكا، وأصبح الحجة الأولى والمرجع الأخير في علم اللغة الحديث[2].

فهل الأمر مصادفة، أم عبقرية فردية، أم أن هذه الحركة والشهرة الواسعة وراءها ما وراءها؟!.

لعل الإجابة تأتينا من معرفة أن كلًا من زعيمي المدرستين الأمريكية والفرنسية (شومسكي) و(شتراوس) يهودي، بل إن

---

(١) البنائية (ص١٤٥).

(٢) البنائية (ص١١٠).

(شومسكي) تربى في الأرض المحتلة [١].

ومع أنني لم أجد من خلال بحثي المحدود ما يدل على دين (جاكوبسون)، لكن ما علمناه عن دوره وما نعلمه عن دور المؤسسات المريبة في احتضان الأفكار الشاذة وتوجيهها، وما هو واضح من صلته بالماركسية [٢]، التي هي فكرة يهودية يجعلنا على الأقل نستريب في انتمائه، ونتساءل أليس من السذاجة أن نغض الطرف عن كون رجال هذا المذهب يهودًا ورموزه توراتية، ونحمل المصادفة وحدها عبء ذلك؟!.

ونزيد: أليست النفسية اليهودية منذ حلول غضب الله عليها مسؤولة عن كثير من المفاسد والشرور في الفكر والواقع من غير اشتراط دافع للإفساد عمدًا بالضرورة، فليس من شرط الأفاعي ـ هكذا كما سماهم المسيح عليه السلام ـ لكي تكون شريرة أن تضع بروتوكولات للإيقاع بالحمام!!.

---

(١) تكونت آراؤه كما يقول الدكتور عبده الراجحي وسط ما يشير إليه هو باسم الجماعة اليهودية الراديكالية في نيويورك، وبعض أبحاثه في العبرية الحديثة، على أن له موقفًا من الصهيونية والدولة اليهودية في الأرض المحتلة.

(٢) كما في تقديمه لكتاب (الماركسية وفلسفة اللغة) تأليف ميخائيل باختين، وترجمة محمد البكري ويمنى العيد.

ب- المدرسة الأمريكية (نيويورك): (هي التي لقيت أكبر قدر من الذيوع في العالم العربي) كما يقول الدكتور صلاح فضل[١].

ولعل الأصح أن يقال في المشرق العربي وهي التي تربى في أحضانها الكاتب النصراني (كمال أبو ديب)[٢]، الذي سار على خطاه الدكتور عبد الله الغذامي وتلميذه السريحي عندنا[٣].

ج - الاتجاهات التطويرية للبنيوية[٤]:

انبثق من البنيوية اتجاهات قامت بتطوير الفلسفات المعروفة وفق منهج بنيوي ـ أي: بصياغة جديدة للفلسفات والنظريات المشهورة ـ ومن رواد تلك الاتجاهات إضافة إلى (شتراوس) وتطويره للدراسات الأنتربولوجية:

١- (لوى التوسير) أعاد صياغة الماركسية بحيث تقرأ من

---

(١) البنائية (ص١٤٠).

(٢) انظر مقدمة كتابه الضخم (الرؤى المقنعة نحو منهج بنيوي في دراسة الشعر الجاهلي).

(٣) انظر الخطيئة والتكفير، والكتابة خارج الأقواس.

(٤) انظر (عصر البنيوية من ليفي شتراوس إلى فوكو آديت كريزويل) ترجمة جابر عصفور، والمذاهب الفلسفية المعاصرة: سماح رافع، فصل البنائية، والبنائية (ص٢١٠-٢٦٦)، والبنوية: جان بياجيه، ترجمة عارف وبشير، والنقد البنيوي للحكاية: رولان بارت، ترجمة آنطون أبو زيد.

منظور بنيوي لا منظور هيجلي!! وقريب منه (هنري لوفيفر) الزعيم الماركسي الحركي.

٢- (جاك لاكان) أعاد صياغة الفرويدية، بل إن كتاباته تعد في مجملها صدى لتلك النظرية، خاصة رسالته (وراء مبدأ الواقع) التي كان عنوانها محاكاة لعنوان كتاب فرويد (وراء مبدأ اللذة).

٣- (ميشل فوكو) الذي صاغ نظرية جديدة في اللغة وأصلها وتراكيبها ووظيفتها، من خلال مصدره الخاص لاستكناه الحقيقة الإنسانية وهو (الجنون) معلنًا أن المجنون يمكن أن يؤدي دور النبي عند المؤمنين بالأديان!! [1].

٤- (رولان بارت) صاغ نظرية بنيوية لتغير الأزياء (الموضة)، هي في جزء منها تطوير لآراء (دوركايم) كما أحدث أثرًا بالغًا في النقد الأدبي خاصة بعد أن أصبح عضوًا في مجلة (TELQUE) صوت الاتجاه الذي يسمى: ما بعد البنيوية أو (التفكيكيين) الذين ينتمي إليهم الغذامي في كتابه السالف ذكره.

---

(١) الجامع المشترك بين كل هذه الفلسفات هو الثورة على المعايير العقلية والحسية، لكن كلًا منها سلك سبيله الخاص، (فرويد: العقل الباطن والأحلام، كاميو وسارتر: الأساطير، شتراوس: السحرة والكهان، برجسون: الحدس، فوكو: الجنون)، والحمد لله على نعمة الإسلام.

المدرسة الفرنسية:

وهي المدرسة الرائجة في القارة الأوروبية والمغرب العربي، وانتشرت في المشرق العربي تبعًا لانتشار الحداثة، ولن نفصل القول فيها وإنما نوجز أهم اتجاهاتها:

١- البنيوية الأنتربولوجية: أي: التي تبحث في الإنسان وتطور حياته وعاداته الاجتماعية ـ وزعيمها هو اليهودي (كلود ليفي شتراوس) السالف الذكر، وقد طور اتجاهات (دوركايم) وفريزر عن الأساطير والعادات الاجتماعية للبدائيين وفق منظوره البنيوي، وهو كثيرًا ما يعلن عن ولائه الماركسي واعتناقه لمبادئ المادية الجدلية، كما أنه يميل إلى البرنامج الاشتراكي سياسيًّا واقتصاديًّا، ويرى أن مستقبل الغرب والعالم كله مرهون بانتصار الاشتراكية [1].

٢- الاتجاه الماركسي: ويمثله رواد الروس المهاجرين إلى فرنسا أو الفرنسيين الماركسيين، ومن أشهرهم: (لوسيان جولدمان) و(لوكاش) وهما مهاجران، وتسمى بنيويتهما (البنيوية التكوينية) أو (التوليدية)، في حين تسمى بنيوية (شومسكي) (التحويلية)! وقد استمدا النظرية من (جان بياجيه)

---

(١) البنائية (ص٢٨).

مؤسسها الأصلي ولكنهما حولاها إلى ماركسية [1].

البنيوية فلسفة ومنهج:

زعم الدكتور كمال أبو ديب أن البنيوية ليست فلسفة؛ لكنها طريقة في الرؤية ومنهج في معاينة الوجود، وعلى هذا الأساس اعتمد الحداثيون في الدفاع عنها كالغذامي والسريحي، وتصريحهما في أكثر من مناسبة بانتهاج هذا المنهج يجعلنا نبين حقيقة هذا الادعاء [2].

جاء في (مجلة فصول) ذات الاتجاه الحداثي المعروف: «يتفق السيد زكريا إبراهيم مع السيد ياسين وغيره في النظر إلى البنيوية على أنها تنطوي على موقف عقائدي أو تمثل منظورًا خاصًّا» [3].

هذا والدكتور زكريا إبراهيم نصراني من أكبر المتخصصين في هذا المجال، وله كتابه المتعمق (مشكلة البنية) وقد تحدث فيه عن «انـزلاق البنيوية من مجال المنهجية العلمية إلى مجال

---

(١) انظر البنيوية التكوينية، الفصلان الأول والأخير، ترجمة محمد سبيلا، المغرب.

(٢) أما الواقعيون عندنا فهم نسخة من اليساريين المنتمين في أي مكان، ولهذا فلا كلام لنا معهم.

(٣) مجلة الفصول (م ٥، عدد ٤، ص ١٤٥).

الأيدولوجيا، وآية ذلك أن المنظور الفكري الذي انطوت عليه هذه البنيوية الجديدة قد جاء مؤكدًا للدعوى القائلة: بأن في تضاعيف هذا الاتجاه الفلسفي الجديد إنكارًا لقدرة البشر على صنع تاريخهم الخاص، ورفضًا لكل نـزعة إنسانية، ومن ثم فقد راح البعض يؤكد أن النداء الخاص الذي اتحدت عنده كلمة البنيوية هو إعلان موت الإنسان »[1].

هذا مع أننا نسأل (أبا ديب) هذا: ما هي الفلسفة إن لم تكن طريقة في الرؤية، ومنهجًا في معاينة الوجود؟!.

ويقول (جان ماري بنو) في كتابه (الثورة البنيوية): « إذا كان الوجوديون قد تخلصوا من الله، فقد نجح (سوسيور) في التخلص من الإنسان».

وقال: « كان الإنسان خالق المعنى ومصدره الحي، ولكنه اختفى تمامًا في ظل العلم الجديد الذي جعل المعنى حصيلة مجموعة من العلاقات اللغوية البنيوية والسيميوليجية التي تفرز العلاقات وتحدد المعاني، وفي ظل هذا التصور أصبح الإنسان إفرازًا لغويًّا بدلًا منه صانعًا للغة».

إنها جبرية من نوع غريب لم تعرف البشرية له نظيرًا من قبل!!.

---

(١) مجلة الفصول، العدد نفسه.

وفي مقال فصول: «وربما كان أكبر دليل على أن البنيوية قد اكتسبت طابع المنظور الفكري أو الموقف العقائدي، هو هجوم بعض البنيويين وعلى رأسهم (ليفي شتراوس) على (سارتر) والوجوديين، ودحض آرائهم في التقدم والمبادئ التاريخية، ويتجلى هذا الطابع العقائدي ـ أيضًا ـ في محاولة بعضهم وعلى رأسهم (التوسير) إعطاء تفسير جديد للماركسية، بحيث حولها من منهج عمل ثوري يرتكز على الإنسان إلى نظرية رجعية تؤكد حتمية سيادة نظام لا سلطان للإنسان عليه.. إلخ».

كما أن الدكتور صلاح فضل عقد مبحثًا بعنوان: (محاولة عقد زواج بين البنائية والماركسية)[1].

وهنا نشير إلى ما تنضح به كتابات السريحي والغذامي ومن لف لفهما من إضفاء القوة المطلقة للغة، وسلب لإرادة الإنسان ـ خاصة الشاعر ـ حتى من نسبة وضع لفظة مكان أخرى!![2]. فأي ربوبية قهرية يريد هؤلاء أن يجعلوها للغة!!.

على أن مما يؤكد أن البنيوية فلسفة ذات تطبيقات ثورية

(١) البنائية (ص٢٨١- ٢٨٦).

(٢) وهذا ما ظهر جليًا في أطروحة السريحي لدرجة الماجستير، وكذلك رسالة الدكتوراه التي رفضها مجلس الجامعة، وكلفه بصياغة جديدة لها يحد من غلوه في فاعلية اللغة وقهرها!!.

واقعية؛ ارتباطها ببعض الأحداث السياسية مما كان سببًا في ظهور نقيضها (التفكيكية)، ذلك أن «التفكيكية هي رد فعل لانهيار البنيوية في فرنسا بعد أحداث عام (١٩٦٨م)، فهي إفراز طبيعي لحالة الإحباط والكفر بالنظريات الشاملة المتماسكة، ومنها الماركسية التي اجتاحت فرنسا في تلك الآونة.

لقد قامت البنيوية على فكرة سيادة منطق البنية المتماسكة فوق الإنسان والمتغيرات، وكانت صدمتها شديدة حيث جعلتها أحداث الثورة الطلابية في أوروبا بصفة عامة في أواخر السبعينيات، وفي فرنسا بصفة خاصة في عام (١٩٦٨م) تدرك الدلالات الحزينة لنظريتها التي أثبتت الأيام صحتها ـ أي: حين أثبتت البنية السياسية في فرنسا قوتها أمام أي معارضة ـ وأصبحت فكرة البنية عدوًا لدودًا للمفكرين، وارتد الكثيرون عن البنيوية كما فعل الناقد (رولان بارت) في كتاباته الأخيرة، واتجه الكثيرون إلى الهجوم على جميع الأنظمة والنظريات العقائدية التي تخنق الفرد»[1].

وهذا النص الصريح يذكرنا بما حصل من انهيار فكرة القومية العربية بعد هزيمة (١٩٦٧م)، والسؤال هو ما الذي ينهار

(١) مجلة الفصول، العدد السابق، (ص١٤٨).

بتأثير الأحداث السياسية، أهي المناهج المجردة أم الفلسفات التي قامت عليها تلك السياسات؟!.

فإن أصر القوم على تسميتها مناهج لا فلسفات فلن نجادل في مجرد الألفاظ، فالمنهج الذي تقوم عليه أنظمة شمولية تارة وتسقط تارة هو عقيدة. والسلام.

ومن هنا كان السؤال الذي جعله الدكتور صلاح فضل عنوانًا لمبحث خاص: «هل البنائية تعبير عن فشل اليسار؟» (1).

ومع كل ما سبق من نشأة البنيوية وما تطور عنها في سياق تاريخي معرفي مغاير ومناقض لما تنتمي إليه هذه الأمة، فلا بأس أن نتنزل في الجدل ونفرض أن البنيوية ليست سوى منهج مجرد في الدراسات اللغوية والأدبية ونسأل:

أليست البنيوية منهجًا مطردًا بقوانين وتحليلات شمولية قاطعة لا تستثني قائلًا ولا نصًّا ولا لغة؟ ثم أليس «الموقف الألسني يجرد كل قاعدة من قدسيتها؛ بل لا يرى قاعدة إلا فيما هو متداول وممارس من طرف المجموعات البشرية، وفي بعض الأحيان يرى تكسير القاعدة قاعدة» (2).

---

(1) (ص٢٨٧- ٢٨٩).

(2) المصدر السابق.

إن كل من يشك في الإجابة على هذا السؤال بالإيجاب هو في نظر البنيويين عدو لدود ورجعي تقليدي؛ ذلك أن قوة النظرية تستمد من شموليتها واطراد قانونها بخلاف سائر المناهج والاتجاهات المنطقية ـ كما يزعمون ـ وعليه فليس لدى البنيويين نص مقدس لا يخضع لنظريتهم، وتبعًا لذلك جرت دراسة التوراة والإنجيل بنيويًّا مثلها مثل سائر النصوص، ومن هنا ندرك مدى خطورة الدعوة إلى البنيوية وتطبيقاتها على اللغة العربية التي أسمى ما فيها وذروة نصوصها باتفاق كل ناطق بها أو دارس لها هو (النص الموحى) ـ أي: كلام الله ورسوله ﷺ(١).

كيف يمكن أن تطبق على القرآن الكريم نظرية موت المؤلف، واستقلال النص وقيامه كونًا مستقلًّا بذاته يفهمه كل قارئ كما يشاء، حيث إنه لا مانع لدى البنيوية من أن يكون له تفسيرات بعدد القراء، بل أكثر من ذلك.

فانظر إلى ما يقوله الدكتور الغذامي بعد أن أطال في تقرير

---

(١) زعم بعض الحداثيين في صحيفة عكاظ، عدد (٧٣٣٦)، ذو القعدة (١٤٠٦هـ): أن جناح الذل في قوله تعالى: ﴿ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ ﴾ [الإسراء:٢٤] ـ الذي استشهد به أبو تمام قديمًا على جنوحه إلى الإعراب ـ زعم الكاتب أنه نفس التركيب الحداثي (السفينة الصخر) مثلًا!!.

هذا الأمر، وجعله من أعظم ميزات المنهج وأسمى خصائصه: « الكاتب صاغ النص حسب معجمه الألسني، وكل كلمة من هذا المعجم تحمل معها تاريخًا مديدًا ومتنوعًا وعى الكاتب بعضه وغاب عنه بعضه الآخر، ولكن هذا الغائب إنما غاب عن ذهن الكاتب ولم يغب عن الكلمة التي تظل حبلى بكل تاريخياتها، والقارئ حينما يستقبل النص فإنه يتلقاه حسب معجمه، وقد يمده هذا المعجم بتواريخ للكلمات مختلفة عن تلك التي وعاها الكاتب حينما أبدع نصه، ومن هنا تتنوع الدلالة وتتضاعف، ويتمكن النص من اكتشاف قيم جديدة على يد القارئ، وتختلف هذه القيم وتتنوع من قارئ وآخر؛ بل عند قارئ واحد في أزمنة متفاوتة، وكل هذه التنوعات هي دلالات للنص حتى وإن تناقضت مع بعضها البعض »[1].

أيقبل مسلم تطبيق هذا الكلام على القرآن؟.

إن إقرار تطبيقه على شعر العرب ولغتهم وهدم قواعدهم النحوية والبلاغية جملة لابد أن يؤدي إلى ذلك حتمًا.

إن موقف طه حسين ومن وراءه أخف من هذا الموقف ولو من بعض الوجوه؛ ذلك أنه ـ وشيوخه المستشرقين ـ حين أرادوا

(١) الخطيئة والتكفير (ص٧٩).

هدم البيان القرآني ـ توصلًا إلى هدم الإسلام ـ اتخذوا ذريعة لذلك إنكار الشعر الجاهلي في ذات نصوصه، أما هذا المنهج البنيوي فهو يتنكر للقواعد والأصول والمعايير النحوية واللغوية؛ بل للفطرة العربية من أساسها، إنه يستبقي النصوص ـ أشباحًا وهلامًا ـ فقط!!.

فالأولون ساروا على منهج كفار قريش في الزعم بأن النص القرآني ليس منزلًا من عند الله، والبنيويون حاكوا الباطنية في تفسيره ـ كما يشاءون ـ بلا ضابط من عقل أو نقل.

وإنه لو قدر للحداثة العربية أن تسير على الدرب نفسه الذي سلكته نظيرتها التركية[1] لكان معنى ذلك المسخ الكامل لا للغة فحسب، بل لوجه الإسلام كله.

---

(١) مرت الحداثة التركية التي انطلقت من جيتو سلانيك بثلاث مراحل:
١ -مرحلة تجديد متأثرة بالغرب، وتمثلها المجموعة التي أصدرت مجلة (ثروة الفنون) سنة (١٣١٣هـ، ١٨٩٥م).
٢ -مرحلة ما سمي (اللغة الحديثة)، وهي دعوة للتخلي عن قواعد اللغة والصرف والنحو والعروض، وتمثلها مجموعة (الفجر الآتي) وهي تشبه كثيرًا الحداثة العربية في مرحلتها الراهنة.
٣ -الاتجاه الحداثي المتطرف الذي أوصل اللغة التركية إلى مرحلة التلاشي والاندثار، وتمثله مجموعة (الأدب الشعبي) التي تطورت لتصبح سلطة قاهرة تقضي على الحروف العربية والأصالة التركية بكل معانيها.
انظر: مقدمة الأدب التركي الحديث، د. يحيى خشاب.

والحداثة العربية في جميع صورها إنما راجت لسببين أساسيين هما:

١- جنوح الناس إلى الخروج عن المألوف ولهاثهم خلف (العصرنة)!!.

٢- الخلط بين الحداثة ـ وإن شئت فقل: بين الهدم ـ والتجديد.

وهما يرجعان في الحقيقة إلى أمر واحد عاشته أوروبا وتعيشه كل الأمم، لأنه خطأ إنساني مشترك يمكن أن يقع فيه كل من لا يملك المعيار الرباني الثابت، وهو خطأ الاعتقاد في التقدم المطلق، واعتبار الزمن وحده معيارًا للحكم على الأشياء.

في حين أن نظرة عقلية عجلى تؤكد أن الحداثة هي نفسها مفهوم نسبي بما أن حاضرنا هو ماضي الغد!!.

فكما رأينا ـ في أوروبا ـ كان (لوثر) أكبر الحداثيين في عصره، وهو الآن نموذج للبروتستانتي الكلاسيكي، و(دانتي) كان حداثيًّا كبيرًا في زمانه، وهو الآن مثال الكلاسيكية الإنسانية.

وكان (ديكارت) حداثي زمانه بالنسبة للفلسفة العقلية، ثم كان الرومانسيون في القرن الثامن عشر نموذج الحداثة الثائرة على العقلانية الجامدة!.

وفي أواخر القرن التاسع عشر كانت الرمزية ثورة حداثية على الاتجاهات جميعها، ولما ظهرت مدارس (اللامعقول) المتنوعة (السوريالية، العبثية، العدمية، الوجودية) كتب النقاد عنها باعتبارها أكبر انقلاب معرفيٍّ حداثي، وأسمى سارتر مجلته العصور الحديثة!!.

وفي الستينيات ـ كما أسلفنا ـ زعمت البنيوية أنها الثورة الحداثية التي لم يشهد التاريخ لها من نظير، ولكن نقيضها التفكيكية سرعان ما ظهرت في أواخر العقد نفسه مدعيةً الدعوى نفسها!!.

وفي أمريكا كانت موجة (الهيبيز) آخر صرعة في نظر مفكري ذلك العقد والآن تلاشت، وارتد كثيرون للأصولية الإنجيلية!!.

وهذا كله غير حداثة ماركس التي حقرت كل ما قبلها، وعندما جاء لينين صاغها بشكل تقدمي (حداثي) أكثر عصرية، ثم جاء عصر (استالين) وتبنّى اتحاد الكتّاب السوفيت آراءه الأكثر حداثة، وبظهور إعادة البناء (الجورباتشوفية) لا نستبعد أن يصف الشيوعيون نظريتهم الجديدة بأنها حداثية للغاية، وهكذا..

إنه العقل البشري المحدود الضعيف الذي يتخيل كل مرحلة من مراحله أنها نهاية التاريخ، والدهر أعظم من ذلك وأطول، لو كانوا يفقهون.

ولا نستطيع أن نجرد الحداثيين العرب عن فهم هذه الحقيقة، لكنهم بذكائهم اللماح لم ينسوا أن اطراد (الجدلية) إلى نهاية التاريخ تساوي نهاية اللغة، يمكنه حل المأزق بافتراض أن اختفاء عنصر النقيض في المرحلة الأخيرة من الصراع الأبدي يؤدي إلى نهاية لا محدودة!! ولذلك تعجل هؤلاء الخطى وطالبوا ـ من الآن ـ بالوصول بالمعرفة إلى تلاشيها المطلق، وباللغة إلى تجريدها المطلق!!.

وبتعبير الحداثيين: (إن الوصول بالمعرفة السائدة والنمطية إلى تلاشيها المطلق ينفي احتمال ظهور أي وضع معرفي إستاتيكي (ثابت)، وسيظل الانفجار المعرفي الحداثي هو السائد والوحيد إلى ما لا نهاية)!!.

وحسبك بهذه النتيجة من باطل لا تنكره بَدائه العقول فحسب، بل يرفضه الواقع الحي في كل البلاد، ولاسيما في الأدب العربي، إنه ليس من سنة الله كما أن الجمود المطلق ليس من سنته.

فالنشاط الأدبي العربي هو جزء من النشاط الحيوي العام الذي يخضع للمبدأ الكلي المطلق في التصور الإسلامي (الحركة حول محور ثابت)، فالتراث الأدبي في جملته يحوي عناصر حركية مستمرة ـ ديناميكية ـ ولكنها تنطلق في حركتها من أصول ثابتة وتلتزم بمعايير ثابتة، وهكذا يتجلى المنهج الفريد الجامع بين الاستقرار والمرونة، لا التصور الجدلي الأدبي العقيم.

إن من دلالات الإبداع والعبقرية أن يأتي الأديب بتلك النماذج الفائقة التي لا يستطيع سائر الناس الإتيان بمثلها مع التزامه بنفس المعايير أو الأساليب التي يعرفون!.

يظهر هذا المنهج الفذ في الشعر العربي الذي توهم كثير من الداخلين في جحر الضب أن معاييره تضيق عن الإبداع وتستلزم الجمود!!.

كلا، إن الإبداع تسابق وما من سباق إلا وله مسارات وحواجز وضوابط، وإلا كان كل ماشٍ في الشارع متسابقًا، ولنأخذ مثالًا: الالتزام بالبحور الشعرية المعروفة، أيّ ضيق أو جمود فيها؟.

إنها سعة لا نظير لها مطلقًا في شعر أي أمة من الأمم، مع الالتزام في الوقت نفسه بمعايير جمالية لا نظير لها كذلك،

فالعروض العربي يتألف من ستة عشر بحرًا، والبحر الواحد ـ غالبًا ـ يكون منه التام والمجزوء والمشطور، وهذا ما يمكن تصنيفه ـ حسب المعايير الأوروبية ـ بحورًا جديدة، هذا غير ما يلحق التفعيلة نفسها من تغييرات معروفة لأهل الفن ولا يستفيد غيرهم من ذكرها هنا، إنها سعة تسمح للموهبة أن تبدع كما تشاء فيما تشاء مع ضبط لا يسمح بتسرب الطفيليات، وولوج من لا يملك المفتاح.

أما حسب المفهوم الحداثي؛ فالطفل الصغير الذي يلغو بكلمات وتمتمات هائمة لا رابط بينها، والشعرور الذي يخبط في العروض والقوافي، ويلفق التراكيب الهشة، ويضع كلمة سطرًا وجملة سطرًا آخر وثلاث جمل سطرًا ثم يرجع من جديد حتى يسود مساحة كبيرة من الورق بغثيان لا معنى له، والنائم الذي يحلم ويهمهم بألفاظ لا نسق يجمعها، والحشاش، وكل أولئك حداثيون تنطبق عليهم معايير القوم (١٠٠٪).

وبعبارة أوضح مادام لدى الإنسان مسكة من عقل؛ فلا يمكن أن تصل معرفته إلى التلاشي المطلق، فهذا شأن من يتعاطى أخطر ما أبدعته العبقرية الغربية من عقاقير الهلوسة!!.

ولو أن المقام يتسع لعرضنا نماذج ممن تاب الله عليهم

وثابوا إلى رشدهم؛ ليعرضوا كيف كانوا يفكرون ويكتبون وينظمون في الماضي الحداثي الحالك كما حدثوني بذلك شخصيًّا أو كتبوه لي.

على أنني لو عذرت أحدًا من أقطاب الحداثة؛ لعذرت أولئك الدعاة الصليبيين التوراتيين الذين أرادوا أن تكون الثقافة العربية كلها سائرة على النمط التوراتي مضمونًا وأسلوبًا.

إنهم أذكياء؛ استخدموا عقولهم لبعث أساطير دينهم وإحياء أساليب كتبهم المقدسة، وليسوا كبني جلدتنا الداخلين وراءهم في جحر الضب بلهاء ساروا في طريق يهدم حقائق الدين الرباني، والكتاب الإلهي المحفوظ مع دعوى إيمانهم به.

وإن تعجب فاعجب لأمة تهزها أزمات سياسية واجتماعية كبرى، كالأزمة التي داهمت الأمة في حرب الخليج الثانية، ويخرج أدباؤها ومبدعوها ليسودوا الصفحات بأن سبب الأزمة هو (إشكالية النص)!!.

أما سائر البشر الذين جعلوا لها أسبابًا أخرى فهم نمطيون سطحيون!!.

لقد كنا نحسب ـ كما هم العقلاء في هذه الأمة جميعهم ـ أن هذه الأزمة سوف تجتاح الحداثة فيما تجتاح من فقاعات سني

الغفلة والترف.

أما والحال كذلك وللمسوغات الموضوعية التي تجعل القضية حية متدفقة وإن تلونت أو كمنت، ولضرورة إقامة الحجة وإبانة سبيل المجرمين فلابد من تجدد الإسهام من أهل الخبرة وفرسان الميدان في هذا المجال، وإنما سطرت هذه المقدمة تذكيرًا وإعذارًا، والله ولي التوفيق.

هذا الكتاب ..

احتوى هذا الكتاب على الحديث عن أثر القارة الأوروبية الكبير في تاريخ البشرية جمعاء وصولا إلى بيان الفرق الواضح بين واقع الحياة الإسلامية وبين واقع الحياة الأوروبية النصرانية، والذي أدى إلى ولادة أوروبية الجديدة من خلال الحروب الصليبية، وتطرق لجمود الأدب في ظل الحكم الكنسي، والذي أدى إلى ظهور الحركات الأدبية والثورات العلمية المناهضة للكنيسة، ثم انتقل المؤلف للحديث عن النظرية البنيوية ومدارسها وحلقاتها وتطبيقاتها في فروع المعرفة، وفي الختام كان الحديث عن الحداثة العربية وأسباب رواجها في العالم العربي.